تحقيق مُسمّى الحَديث القُدُسيّ

لـ

الأستاذ الأكبر محمد الطاهر ابن عاشور

هذا مبحث دقيق من علم الحديث لم يُتعرض له في علم مصطلح الحديث دعاني الى تحريره انه وقع لـدي منذ بضعة أيام كتاب عنوانه «الأحاديث القـدسيـة» ممـا جمعتـه لجنة القـرآن والحديث من المجلس الأعلى للشؤون الاسلاميـة بالقـاهـرة، وهي الأحاديث المـوجودة في المـوطا والصحيحين وكتب السنن الأربعـة. فحمـدت عناية أعضـاء اللجنـة وتهمّمهم بهذا العمل، اذ قـل من اهتم باخراج الأحاديث القـدسيـة في كتاب مفـرد. قـال ابن حجـر الهيثمي (1) في شرح الحديث الرابع والعشرين من الأربعين النوويـة «الأحاديث القـدسيـة أكثر من مائة وقد جمعهـا بعضهم في جزء كبيـر». وقال على القارىء (2) في شرحه على الأربعين النـووية «الأحاديث القدسية أكثر من مائـة». قلت هذا الجزء لا نعرفه ولا نعرف من جمعـه. وفي هذا الغرض ألف كتاب الاتحافات السنيـة بالأحاديث القدسيـة لمحمد المعروف بعبد الرؤوف المنـاوي (3) ذكره صاحب كشف الظنون وقـال رتّبه على بابين الأول فيمـا صدر بلفظ قال الله سبحانه وتعالى. والثـاني بمـا تضمن قوله تعالى. وكلاهمـا على الحروف وهذا الكتاب اطّلع عليه الذين دونوا كتاب الأحاديث القـدسيـة ولعلي قارىء كتاب سماه الاحاديث القدسية والكمالات الانسية جمع فيه اربعيـن حديثا قدسيا وطبـع في سنة 1316 ولم اقف عليه، وفي كشـف الظنـون ان الشيـخ محي الـديـن ابن عـربي جمـع اربعيـن

(1) احمد بن حجر الهيثمى المكى المتوفى سنة 73 .
(2) هو على المعروف بمنلا على قارى الهروى المكى المتوفى سنة 1044 .
(3) هو محمد عبد الرؤوف بن على المناوى القاهرى المتوفى سنة 1031 .

حديثا قدسيا وقد اشتمل كتاب «الاحاديث القدسية» على أربعمائة حديث باعتبار المكرر باختلاف الروايات واختلاف الاسانيد . وعلى نحو مائة وثمانية وستين بطرح المكرر. مع ان ابن حجر الهيثمي وعليا القاري ذكرا في شرحيهما على الأربعين النووية، ان الأحاديث القدسية أكثر من مائة، وحصرُها بأكثر من مائة يقتضي انها لا تزيد على المائة بكثير.

ولم أر كلاما تنضبط به حقيقة الحديث القدسي لنضوب عبارات الكاتبين واجمالها، فاذا أخذوا في بيان ما هو الحديث القدسي هرعوا الى الخوض في التفرقة بين الحديث القدسي وبين القرآن، وان التفرقة بين القرآن وبين الحديث القدسي (وان كانت لا تخلو من تيسير لضبط تعريف الحديث القدسي)، فالاشتغال بها قبل ضبط التعريف يُعد في صناعة التأليف تطوحا عن الأهم، فحملني هذا وذاك على تحقيق معنى الحديث القدسي وتعريفه بحد جامع مانع بعد جلب التعاريف التي سبقوا بها .

تعريف الحديث القدسى

الحديث القدسي ويسمى الحديث الرباني، الحديث الالهي.

قال السيد الجرجاني في كتاب التعريفات «الحديث القدسي هو من حيث المعنى من عند الله. ومن حيث اللفظ من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو ما أخبر الله تعالى به نبيئه بإلهام أو بالمنام فأخبرَ عليه الصلاة والسلام عن ذلك المعنى بعبارات نفسه اه.

في الاتقان للسيوطي في النوْع السادس عشر «قال الجويني (1) الحديث القدسي كلام من الله منزل على النبيء صلى الله عليه وسلم غير ملتزم تبليغه بلفظ معين بل المقصود المعنى، فقد تكون العبارة من جبريل» اهَ

(1) فى المطبوعة كتب الجوينى بجيم فواو فتحتية فنون فياء نسب فلعله يعنى به امام الحرمين او والده . وفى نسخة مخطوطة كتب بخاء معجمة فواو فتحتية فنون فياء نسب ولم أجده فى الانساب ولا فى تاج العروس.

وقال ابن حجر الهيثمي في شرح الأربعين النووية عند الكلام على الحديث الرابع والعشرين «الأحاديث القدسية ما نقل الينا أحادا عن النبيء صلى الله عليه وسلم مع اسناده لها عن ربه فهي من كلامه فتضاف اليه وهو الأغلب ونسبتها اليه حينئذ نسبة انشاء لأنه المتكلم به أولا. وقد تضاف الى النبيء صلى الله عليه وسلم لأنه المخبر بها عن الله».

وقال علي قاري في شرح الأربعين النووية عند الكلام على الحديث الرابع والعشرين «القدسي اخبار الله نبيه معنى لفظ بإلهام او بالمنام فأخبر النبيء صلى الله عليه وسلم امته بعبارته عن معنى ذلك الكلام اهـ» وهو قريب من كلام السيد الجرجاني. وقال أيضا «قال الطيبي الحديث القدسي نص الاهي في الدرجة الثانية (أي دون درجة القرءان) وان كان من غير واسطة الملك غالبا لان المنظور فيه المعنى دون اللفظ وفي القرءان اللفظُ والمعنى منظوران» اه

وهذه التعاريف تقتضي ان اللفظ في الحديث القدسي غير معين وانما هو إلقاء المعنى في قلب النبيء صلى الله عليه وسلم دون تعيين لفظ (أي بواسطة الملك او بالالهام)

وتقتضي ان كل ما حكي في الأحاديث من اقوال منسوبة الى الله تعالى يعتبر حديثا قدسيا فيدخل فيه ما يجري من حكاية محاورات ومقاولات فيها كلامٌ لله تعالى مع بعض عباده.

وفي شرح جمع الجوامع للمحلي عند تعريف المتن بقوله «القرآن اللفظ المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم للاعجاز بسورة منه المتعبَّدُ بتلاوته»، قال المحلي «فخرج بالمنزل على محمد صلى الله عليه وسلم عن ان يسمى قرءانا الأحاديثُ غير الربانية، وخرج بالاعجاز الأحاديثُ الربانية» اه وهذا يتضمن تعريف الحديث الرباني اي القدسي، ويؤخذ منه انه موحى بلفظه الى النبيء صلى الله عليه وسلم ولكن لفظه ليس للاعجاز ولا متعبّدا

بتلاوته، فاقتضى ان لفظ الحديث القدسي موحى به بعينه، واذْ لم يكن لنا طريق الى معرفة كون الكلام الذي يحكى به قول من الله تعالى في الأحاديث النبوية أهو عينُ ما أوحي بلفظه، ام هو كلام يُرادفه، تعين علينا ان نتوسمه من صيغة حكاية رَاويه.

وكلام المحلي والطيبي يزيدان بالتصريح بان لفظ الحديث القدسي موحى به الى النبيء صلى الله عليه وسلم بلفظه ولكنه يجوز ان يروى بلفظ آخر مساوٍ للفظه في اداء المعنى المراد، (على نحو ما ذكروا في رواية حديث النبيء صلى الله عليه وسلم بالمعنى وجوازها في قول الأكثر) فاختلاف عباراتهم في تحديد الحديث القدسي يزيد بعضها على بعض لكن بعضها يكمّل بعضا ويتممه، فالتخالف بينها من قبيل التداخل

والذي استخلصته من مجموع كلامهم وحملِ بعضه على بعض للجمع بينه ان نقول : **الحديث القدسى « هو كلام من الله تعالى صادر منه فى الدنيا ، غير مخاطب به معين ، موحى به الى رسوله صلى الله عليه وسلم بألفاظ معينة غير مقصود بها الاعجاز ولا التعبد بتلاوتها ، ليبلغها الى الناس ، مع تفويض التصرف فى ألفاظها بما يؤدى المقصود »**

فقولنا «كلام من الله» جنس شامل لكل لفظ يتضمن مراد الله فشمل القرآن وما يحكى من اقوال تصدر من الله زجرا للكفار او الشياطين

وخرج بقولنا «صادر في الدنيا» ما هو اخبار من رسول الله صلى الله عليه وسلم عن اقوال تصدر من الله يوم القيامة او صدرت منه قبل اهباط آدم الى الأرض، او اخبار عن اعمال لله دون اقواله.

كقوله في حديث البخاري عن ابي هريرة: «تكفل الله لمن جاهد في سبيله لا يُخرجه الا الجهادُ في سبيله وتصديقُ كلماته، بأن يدخله الجنة او يرجعه الى أهله مع ما نال من اجر وغنيمة.» فهذه الرواية ليس فيها حكاية عن قول الله تعالى فلا تعد حديثا قدسيا. ووقع في رواية النسائي عن النبيء صلى الله عليه وسلم فيما يحكيه عن ربه عز وجل قال: «ايما عبد من عبادي خرج مجاهدا في سبيل الله ابتغاء مرضاتي ضمنتُ له ان ارجعه بما أصاب من اجر او غنيمة،» الحديث، ففي هذه الرواية يكون حديثا قدسيا.

وخرج بقولنا «موحى به الى رسوله» ما يحكى من اقوال تصدر من الله تعالى خطابا لغير محمد صلى الله عليه وسلم كقوله في الحديث: «بينما أيوب يغتسل خرّ عليه رِجلُ جراد من ذهب فجعل يحثي في ثوبه فناداه ربه يا أيوب الم أكن اغنيتك عما ترى قال بلى يا ربّ» الحديث.

وقولنا «موحى به الى رسوله صلى الله عليه وسلم» يشمل انواع الوحي سواء كان بواسطة جبريل او بالمنام او بالالهام كما يُؤخذ من عبارة الجويني والطيبي. واما الذي يؤخذ من كلام السيد الجرجاني وعلي القاري وكلام أبي البقاء في الكليات عند الكلام على القرآن فهو ان الحديث القدسي لا يوحى به الى النبيء صلى الله عليه وسلم بواسطة جبريل بل بالالهام او المنام

وبقولنا «غير مقصود بها الاعجاز ولا التعبد بتلاوتها» خرج القرءان.

وقولنا «ليبلغها الى الناس» اي ان يقترن الأخبار بذلك الكلام بقرينة تدل على ان المقصود اعلام الناس به، وهذه جهة شبه بين الحديث القدسي وبين القرآن وخرج بذلك ما يحكى من اقوال الله تعالى للملائكة او في اثناء القصص ونحوها كما في حديث الموطا «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار – الى قوله – فيقول لهم ربهم وهو اعلم بهم كيف تركتم عبادي» الحديث، وكما في حديث ابن عباس في صحيح البخاري في قصة سؤال موسى عليه السلام مع الخضر اذ عاتب الله موسى على قوله إني لا أعلم احدا اعلم مني فقال له الله تعالى بَلى عبدنا خضر بمجمع البحرين، فسأل موسى السبيل الى لُقيه.

وقولنا «مع تفويض التصرف في ألفاظها» اي التفويض الى النبيء صلى الله عليه وسلم والى جبريل اذا كان هو المبلغ لها مسوق مساق التقسيم لأن الأحاديث القدسية يجوز التفويض في عبارتها لجبريل او للنبيء صلى الله عليه وسلم

صيغة رواية الحديث القدسى

صيغة رواية الحديث القدسي حصرها ابن حجر الهيثمي في شرحه للأربعين في صيغتين احداهما: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه وهذه صيغة السلف (يعني او ما يرادفها كما في حديث ابن عمر عن النبيء صلى الله عليه وسلم فيما يحكيه عن ربه عز وجل قال ايما عبد من عبادي خرج مجاهدا في سبيل الله الحديث المتقدم آنفا) الثانية قال الله تعالى فيما رواهعنه رسوله. فيعتبر احدى هاتين الصيغتين او ما يرادفهما، من الحديث القدسي ويدل التتبع والاستقراء على ان الحديث الذي فيه تحاور ومقاولة بين الله وبين بعض عباده الأخيار او الأشرار، لا يعد حديثا قدسيا بل الحديث القدسي ما هو حكاية قول الله وحده

والذي يظهر من كتاب الأحاديث القدسية ان اللجنة التي دونته اعتمدت في حقيقته الحديث القدسي انه كان ما حكي فيه قول محكي عن الله تعالى مطلقا

الفرق بين الحديث القدسى والقرآن
والفرق بينه وبين غيره من الاحاديث النبوية

اما الفرق بين القرآن والحديث القدسي فظاهر مما ذكرناه، وانما الخفاء في الفرق بين اقوال النبيء صلى الله عليه وسلم مما ينسبه الى الله وبين غيره من كلامه، ذلك ان الكلام الصادر عن النبيء صلى الله عليه وسلم في التشريع وأمور الدين محمول عند الجمهور على انه موحى به اليه. قال ابن حجر الهيثمي في شرح الأربعين النووية «اختلف في بقية السنة غير الأحاديث القدسية هل هو كله بوحي اولا، وآيةُ: « وما ينطق عن الهوى انْ هو الا وَحْي يوحى.» تؤيد الاول». وقال السيوطي في الاتقان في النوع السادس عشر «ان جبريل كان ينزل بالسنة كما ينزل بالقرآن» وأقول هذا هو الظاهر كما يدل عليه حديث يعلى بن أمية: «ان رجلا اتى النبيء صلى الله عليه وسلم بالجعرانة وعليه (اي على الرجل) جبة وعليه اثر الخلوق فقال يا رسول الله

كيف ترى في رجل احرم بعمـرة وهو متضمخ بطيب فسكت النبيء صلى الله عليه وسلم فجاءه الوحي فلما سرُي عنه قال اين السائل عن العمرة قلت انا يا رسول الله قال: اخلع عنك الجبة واغسل اثر الخلوق عنك وانق الصفرة واصنع في عمـرتك كمـا تصنع في حجك» فهذا الاخبار عن حكم العمـرة نزل فيه وحي ولم ينزل فيه قـرآن وظاهر الحال يقتضي ان الوحي للنبيء صلى الله عليه وسلم في تلك الساعة نزل لأجل جـواب السائل عن العمل في العمـرة، على انه يحتمـل ان يكون سُؤال السائل صادفَ وقتَ نزول الوحي بقرآن وانّ تأخير جواب النبيء صلى الله عليه وسلم عنه كان لأجل الاشتغال بتلقي قرآن ينزل لا لترقب نزول وحي لجواب السائل، وهو احتمال بعيد، ومسألة كـون جميع الأحـاديث مـوحى به مسألة مبنية على الخـلاف في وقـوع الاجتهاد من النبيء صلى الله عليه وسلم في الشـرعيـات.

وبمـا تقرر تكون الأقوال التي ينطق بها النبيء صلى الله عليه وسلم ثلاثة انواع اعلاها القرآن وهو معلـوم. الثاني الحديث القدسي وهو الذي بحثنا في شأنه ولا بد فيه من نسبة قول الى الله، الثالث الحديث النبوي وهو ما عدا القـرآن والحديث القـدسي.

وقد تتبعت ما في كتاب الأحاديث القدسية للجنة القرآن والحديث فوجدت ما يحق ان يعد حديثا قدسيا اربعة وخمسين حديثا وفي أكثرها روايات الغينا اثباتهـا فنحو قول النبيء صلى الله عليه وسلم في الصحيحين «ينزل ربنا عز وجل كل ليلة الى السمـاء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول من يدعوني فاستجيب له من يسألني فاعطيه من يستغفرني فاغفرله» يشبه ان يكون قدسيا وليس بالقدسي لانه قول إلهـيّ متعلق باحوال قوم مخصوصين، ونحو قوله في حديث المـوطا: (يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار فيقول الله لهم كيف تركتم عبادي) الحديث ليس بقدسي لأنه حكاية قول من الله للملائكة وليس قولا يراد تبليغه وانمـا المراد تبليغ القصة كلها بما اشتملت عليـه.

ونحو حديث «ان الله يرضى لكم ثلاثا ويكره لكم ثلاثا» الحديث ليس بحديث قدسي لأنه نسبة فعل الى الله لا نسبة قول، وكذلك حديث «كلمتان

وسيبويه، وقالوا : لو كان مشتقا لم تمنع وقوع الشركة فيه بين كثيرين، وثبت بالاستقراء أنه للباري وحده ولا يعلم له سمي لهذا كان علما غير مشتق .

ومن قال إنه مشتق ، جعله من أَلِهْتُ إلى فلان أي سكنت إليه، فالعقول والأرواح لا تسكن إلا إليه تعالى.

ومن قائل إنّه مشتق من الوله، وهو ذهاب العقل، وقال إن الخلق قسمان قسم وصل الى ساحل بحر معرفته، فتاه في ميادين الصمدية، وقسم محروم قد بقي في ظلمات الحيرة وتيه الجهالة. فالأولون ولهوا في عالم الكرامات وأنواره والاخرون وَلَهوا بالجهل وظلماته، والكل واله فيه، إمّا بالمعرفة أو بالتخلف عنها. وقيل إنّه مشتق من أله في الشيء إذا تحير فيه، ولم يهتد إليه، وهو الشأن في كل من تفكر فيه تعالى. لأن كل ما يتخيّله الانسان ويتصوره فهو بخلافه. وقالوا : إنّه من لاَهَ يَلوهُ إذا احتجب، ومعنى كونه محتجبا أي بكنه صمديته عن العقول (1). وقالوا أيضا إنّها من ألهَ بالتّحريك و التخفيف بمعنى عَبدَ، فالإلاه على وزن فعال بكسر الفاء بمعنى معبود وقد كانت معروفة عند العرب قبل الاسلام أطلقوها على كل معبود من آلهتهم، ولما كان واجب الوجود سميناه هو الإلاهُ حقا عند الموحدين خلال عصور الشّرك أو قبل ظهور الشّرك، هو أعظم الأرباب أطلقوا عليه اسم هذا الجنس معرفا بأل العهدية الذهنية، فقالوا : الإلاه، فصار بالتعريف مستعملا له سبحانه وتعالى، حتى صار بكثرة الاستعمال لا يفهم منه إلا هو. فصار علما بالغلبة. (2)

ولفظة الله تعالى، وردت في القرآن الكريم أكثر من ألفي مرة. وهذا

1) التفسير الكبير للفخر الرازى ج 1 ص 58 ، وما بعدها .

2) التحرير والتنوير ، للمولى الامام محمد الطاهر ابن عاشور ج 1 ص 108
وانظر أيضا (1) Mac Donald, art, Allah, in ei
Louis Gardet, La Mystique musulmane p. 31 - cf., Ei (2) Art, Allah

التكرار لاسمه تعالى في كتابه المقدس إنّما هو تقرير للأذهان في أن أهم ما خلقت له السموات والأرض معرفة الله وعبادته، أو هو تقرير الألوهية العزيزة في ذهن العبودية الذليلة، وما خلقتُ الجن والإنسَ إلا ليعبدوني. الذاريات. وقيل في تفسير يعبدوني، يعرفوني ومعرفته تعالى عبادة.

طرق معرفته تعالى

1) النص القرآني و أصحاب هذه الطريقة هم أهل السنّة من أشاعرة وماتريدية وينضم تحت لوائهم أهل الظاهر كابن حزم،وتقي الدين ابن تيمية وبعض المتصوفة.

2) طريقة العقل وذلك بالتأمّل والإستقراء وهي للفلاسفة والمعتزلة

3) طريقة الصوفية القائلين بالإشراق.

ولكل طريقته الشّرعية ونصوصه من الكتاب والسنّة، وكل هذه الطرق صالحة وموصلة إلى معرفة الحق الواجب الوجود ومعرفة أبديته وصفاته اللائقة به تعالى. وإن كانوا كثيري التحامل على بعضهم وكلهم حريص على أن تكون عقيدته خالصة من شوائب الشّرك والكفر، وكلّهم مجتهد في الإيمان به تعالى على الطريقة التي يراها أنها ترضيه، وكما جاء في القرآن الكريم، مخالفا لما عليه اليهود والنّصارى من تجسيم وتعدد (1).

فأصحاب النص سواء كان قرآنا أم سنّة، يرون أن العقل قاصرٌ عن إدراك حقيقة الحق المطلق، فوجب الايمان به تعالى وبصفاته كما جاءت في الكتاب والسنّة خوفا من أن يقعوا في الجدل والكلام وقد نهى العلماء

1) انظر الرد على ابن التغريلة اليهودى لابن حزم ص 70 ـ وقوله تعالى : وقالت اليهود يد الله مغلولة ، غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا : وقوله تعالى : أنى يكون له ولد ولم يكن له صاحبة وخلق كل شيء . الانعام101
Cf., Le nouveau testament. St. Luc, 10 - 18,33

ولهذا قال مجاهد: معنى ليعبدوني، ليعرفوني، وقال البغوي : وهذا حسن، لأنـه لو لم يخلقهم لم يعرف وجوده وتوحيده والتعبد له، وقيل ليعبدوني، ليوحدوني. لقول ابن عبّاس كل ما وُجد في القـرآن من ذكر العبادة، فمعنـاه التـوحيـد (1)

ويقولون إنه ثبت بالعقل والتأمل والمعجزات صحة نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم، لذا واجب على كل مسلم أن يرجع في معرفته لواجب الوجود إلى ما جاء به رسول الله من كتاب وسنة، لأن التأمل بالعقل والنظر والاستقراء. لذا وجب أن نرجع إلى النص لتهذيب معلوماتنـا. قال الغـزالي: يجب عليك أولا أن تعرف المعبود ثم تعبده. وكيف تعبد من لا تعـرفه بأسمـائه وصفات ذاته وما يجب له وما يستحيل في نعتـه، فربما تعتقـد شيئا وفي صفاته شيء والعياذ بالله مما يخالف الحق، فتكون عبادتك هباء منثورا، والخلق مهمـا تأملوا ووصلـوا إلى معـرفتـه تعالى، فإن معلـومـاتهم تبقى غير علميـة ولا كافيـة، وقد قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : الحمد لله الذي لم يجعل للخلق سبيلا إلى معـرفته إلا بالعجز عن معـرفتـه. (2) لذا أوجب الرجوع الى النص وهي الطـريق السليمـة للمعـرفة. وليعلم البالغ أنه من يوم بلـوغـه قد وجب عليـه معـرفة الله بالدليل لا بالتقليد، ويكفيـه من الدليل رؤية نفسـه وترتيب أعضائه فيعلم أنه لا بد للبنـاء من بانٍ. وجب إذا بعد أن تأمل بالعقـل أن يكمل علمـه بالسمـع، والعلم بالسمع أفضل من العلم بالعقل. ومعرفـة الله جل جلاله يترتب عليها معرفة أوامره ونواهيـه ومعـرفـــة ملائكته وأنبيائه ورسلـه واليوم الاخر وكتبه المنزلة وكيفية أداء العبادات من صلاة وصوم وحج وتوحيد وقانون شامل للحياة اليومية الموصل إلى دار الخلود برضى الله، وهذا لا يمكن أن يستند في معرفته إلى العقل وحـده. لذا وجب الرجوع إلى النص (3)، وبهذا قال شيخ الصوفية الجنيد بن محمد

1) تفسير الطبـرى سورة 51 ـ والذاريات . آيـة 56 . وانظر ايضا كشف الغطاء لابن الاهدل ص 4 ط . تونس 1964 .
2) احياء ج 1 ـ ص 89 ـ كشف الغطاء ص 6 .
3) احياء 90 وابن الاهدل المرجع السابق ، 7 .

كمـا مر : الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول صلى الله عليه وسلم. وقال : كل لم يعرفه في الحقيقـة إلا به (1)، وهو يعني العقـل أولا كي يطمئن القلب، ثم النص الشرعي كي يصل إلى القواعد المتضمنـة لأحكام التوحيد والعبادات، كما جرى في تأمل الخليل عليه السلام ووصوله إلى معرفة الله بالله، لا بالتأمل، ويرى بعض الكبار من فلاسفة الصوفية وممن يلتـزمون الاشعـريـة أن الحق أعز من أن تهجم العقـول عليـه، وأنه عرفنا نفسـه : أنه ربنـا ؛ فقال : ألست بربكم ؟ (2) ولم يقل من أنا؟ فتهجم العقـول عليه حين بدا معـرفا، فلذلك انفرد عن العقـول وتنـزه عن التحصل غير الاثبـات.. وهذا رأي دقيق من سبر غوره انكشفت له معـان كثيرة. لذا رجع أهل السنـة في عقيدتهم إلى مدرستي الأشعـري والماتريدي وقالوا بما جاء في الكتاب الكريم من توحيده تعالى ووجوده وصفـاته الكمالية وألقـوا عصا الترحال وعرفوا الله بالعجز عن معرفـته تعالى (3) ولذا قال إمـام الحـرميـن :

العالم: هو كل موجود سوى الله تعالى وصفات ذاته العليـة، ثم العالم جواهر وأعراض : فالجوهر، هو المتحيز، والعرض : هو المعنى القائم بالجوهر كالألوان والطعوم والروائح والحياة والموت والعلوم والإرادات والصفات القائمـة بالجواهر (4) وكلها متغيـرة. وكل متغير يتطـرق إليه الفنـاء. إذا فهو حادث، فاذا ثبت حدوثهـا، فلا بد أن يكون لها محدث، لأن الموجودات لا توجد نفسهـا بنفسهـا، وهذا المحدث يكون أزليـا مخالفا للحـوادث، لأن المحدث إذا كان محدثا لا يحدث إلا حادثا زائلا، فيتعّين أن يكـون المحدث أزليّا ومخالفا للحـوادث والمـوجودات، وأن يكـون

1) التعرف ، للكلاباذى ط . القاهرة 1960 ص 64 .
2) الاعراف ، 173 .
3) انظر الرسالة القشيرية ومقالات الاشعرى وابن الاهدل المرجع السابق 98
4) الارشاد ط ، بـاريس ص 10 ـ وانظر سليمان دنيـا الحقيقـة فى نظـر الغـزالى ص 220 .

صفاته من آثاره تعالى. قال تعالى : سنريهم آياتنا في الافاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق، ولذا قرر ابن رشد في فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الإتصال أن ليس بين الشريعة والعقل خلاف، وهو رأي ابن سينا، وعليه الطبيعيون القائلون بأن التأمل في خلق الله ومعرفة أعضاء الإنسان والحيوان يقضي إلى الاف المنافع، وقال ابن سينا : من تعلم فن التشريح ازداد ايمانا بالله تعالى. وقال الغزالي : إن الطبيعيين أكثروا الخوض في علم التشريح للأعضاء فرأوا فيها من عجائب صنع الله تعالى وبدائع حكمته ما اضطروا معه إلى الاعتراف بفاطر حكيم، مطلع على غايات الأمور ومقاصدها، ولا يطالع التشريح وعجائب منافع الأعضاء مطالعٌ إلا ويحصل له هذا العلم الضروري بكمال تدبير الباني لبنية الحيوان لاسيما الإنسان (1). ومن هؤلاء إخوان الصفاء وتأملاتهم في الأجرام والأعضاء، ووظيفتها في الأجسام وحكمة تركيبها وعجيب صنعها، وقالوا إنها أدلة قاطعة على علم وقدرة وحكمة الصانع جل جلاله، ولما رأى المعتزلة ما وصل إليه العقل بالتأمل قالوا : إن بعث الرسل من باب اللطف وليس بواجب، لأن العقل يوصل إلى معرفة الباري وقريب من هذا الفلاسفة ابن سينا وابن الطفيل وابن رشد والفارابي والكندي (2). ويقول ابن رشد : وهذه الطريقة هي الطريقة الشرعية والطبيعية، وهي التي جاءت بها الرسل ونزلت بها الكتب، والعلماء لا يفضلون الجمهور في طريقتهم بالقول بالنص، لأن مثال الجمهور عنده في النظر إلى الموجودات مثالهم في النظر إلى المصنوعات التي ليس عندهم علم بصنعها فإنهم إنما يعرفون من أمرها أنها مصنوعات فقط، وأن لها صانعا موجودا، دون التعمق في فهمها على الوجه العلمي الأصح. أما العلماء فقد نظروا إلى المصنوعات التي عنده، علما ببعض صنعتها وبوجه الحكمة فيها،

1) الغزالى منقذ 145 وابن رشد فصل المقال ص 48 ـ 9 ـ ط مصر الرحمانية بدون تاريخ .
2) الفرق بين الفرق 94 ـ الفصل لابن حزم ج 2 ص 172 ـ رسائل الكندى 214 وابن رشد ، الكشف عن مناهج الادلة فى عقائد الملة ص48 حى ابن يقظان لابن الطفيل .

ولا شك أن من حاله من العلم بالمصنوعات هذه الحال هو اعلم بالصانع من جهة ما هو صانع، من الذي لا يعرف من تلك المصنوعات إلا أنها مصنوعة فقط. وقد ناقشه ابن تيمية ورد عليه، متهمه بأنها آراء أرسطو، وأصحابه (1) ولا يسمح لنا المقال أن نتعرض إلى جدل كل هذه المدارس فليس هنا محل ذلك. وغايتنا أن نُشير إلى طرق أهل القبلة في معرفة واجب الوجود فقط، وكل منهم مجتهد فمن أصاب فله أجران، ومن لم يصب فله أجرُ الإجتهاد، والناس ما اختلفوا إلا في عظيم. ومن الفلاسفة من يقف موقفا وسطا بين التأمل والإشراق أحيانا، وبين التأمل والنص أحيانا أخرى، ومن هؤلاء أبو جعفر بن الطفيل الأندلسي الذي يرى أن كلا الطريقتين توصلان إلى معرفة واجب الوجود، فالإنسان يستطيع أن يرتقي بنفسه من المحسوس إلى المعقول ومن المعقول إلى الكشف فقد جمع هنا بين الطريقتين : العقلي والكشفي، ويزيد أن العقل لا يستطيع أن يصل إلى التفاصيل التي يوجبها الشرع كالصلاة والصوم والزكاة والحج وإباحة أشياء واجتناب أخرى وعلة تشريعها، وهنا لا بد له من نصوص شرعية، ونستطيع أن نلخص رأيه في أنه جامع للطرق الثلاثة الشرعية، فهو يدعوا إلى التأمل، ثم إلى تطهير النفس والإعراض عن الشهوات وحب الخير والإقرار بالعبودية المطلقة للرب والتقرب إليه بالعمل الصالح ثم بالرجوع إلى النص لأداء ما يجب أداؤه من العبادات والتأدب بالاداب الشرعية (2). كذلك من المتصوفة من يجمع بين رأيين أو ثلاثة كابن عطاء الإسكندري الشاذلي أولا ثم الوجودي آخرا، وهو القائل : تعرف إلى العامة بخلقه لقوله : أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت. الآية وهذه الآية من جملة آيات أخرى كثيرة، الداعية إلى التأمل وإعمال الفكر، إلى الخاصة بكلامه وصفاته بقوله : أفلا يتدبرون القرآن أم على

1) مناقشات ابن تيمية مطبوعة فى اخر فصل المقال لابن رشد ، المصدر السابق ص 128 .
2) حى بن يقظان الطبعة الثالثة أحمد أمين ص 9 ، 28 ـ 32 عن ابن الطفيل المتوفى سنة 581/1185 انظر روض القرطاس ، للمراكشى ص 135 .

جل جلاله استحق عليه القتل وقد أفتى العلماء من أهل السنة كما أفتى أبو القاسم الجنيد بذلك وقال : ومن الناس من يستعمل هذه الشطحات الشنيعة مذهبا ويدونها في التصانيف بأصولها وقواعدها وفروعها كهذا الرجل وأمثاله فهؤلاء ملحدون في دين الله تعالى، فمن التمس لهم عذرا فقد أخطأ الطريق وأشبه عليه المعذور بغير المعذور (1). كما أفتى العلماء بقتل كل من قال بقوله كابن أبي العزا فيري (2) والسهروردي (3) ولاموا صوفية كبارا مثل ابن عربي وابن عطاء الله وابن الفارض الذين أغرقوا وصرحوا بشطحات لا تليق بأهل الله، مردها إلى الحلول وهو زيغ عند العلماء باتفاق الأمة، لأن علم الإشارة والمشاهدات والمكاشفات لا يمكن التعبير عنها على التحقيق، بل تُعلم بالمنازلات والمواجيد، وهي أحوال عابرة، لا يكن أن تدوم على صاحبها، (4) كما أن هؤلاء الصوفية عندما يصدر عنهم مثل هذا ويسمعهم من كان في حالة طبيعية يرى أن قولهم هذا كفرٌ فيشيع عليهم أقوالهم وينسبهم أحيانا إلى الخروج عن الدين وهذا ما ليم عليه الحلاج ليلة موته من طرف أصحابه (5)، كما رُوِيَ عن أبي يزيد البسطامي وهو سيد من سادات هذه المدرسة قوله : سبحاني سبحاني ما أعظم شأني، ويعتذر له الغزالي، أنه يحكي ذلك عن الباري تقدس اسمه ولا يمكن لأبي يزيد أن ينسب هذا له، ولعله يحكيه عن الله عز وجل في كلام يردده في نفسه (6)، لكن نظرية الاشراق عند الصوفية المعتدلين ليست مركبة من قانون ذي مقدمات ونتائج كما هي عند الفلاسفة وأهل الرأي في التأمل، أو هي ليست الطريقة المنطقية في إثبات واجب الوجود، بل هو نورٌ يقذفه الله في قلب العبد ويحصل هذا بعد تجريد النفس من العوارض

1) ابن الاهدل ـ كشف الغطاء ص ـ 178 .
2) عنه انظر الديباج 5، 184 .
3) قتل سنة 758 .
4) التعرف ـ ص . 87 .
5) احياء ج 4 . ص . 234 .
6) كشف الغطاء 112 ـ والاحياء السابق .

الشهـوانيـة وإقبالهـا على المطلوب ويستـدلون على ذلك بآيـات من القرآن الكريم كقوله تعـالى : واتقوا الله ويعلمكم الله (1) وقـوله تعالى : والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا (2) وقوله جل من قال : إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا (3) والايات في هذا المعنى موجودة في القرآن الكريم. وأقوال المشائخ منهم متوفرة في هذا الرأي. قال النوري(4): الدليـل على الله. هـو الله.

والعقل عاجزٌ ولا يـدل العاجز إلا على العجـز وقـال ابـن عطـاء الله الاسكنـدري العقل آلة للعبودية لا للإشراقِ على الربوبية. (5) وقال آخر : العقـل يجـول حول الكون، فإذا نظر إلى المكـون ذاب، وأنشـد :

لا يعرف الحق إلا من يعـــرفـــه   لا يعرف القدمي المحدث الفاني

لا يستـدل علـى الباري بصنعتـــه   رأيتم حـدثا ينبي عـن زمـــان

كان الـدليـل له منـه إليـه بـــه   من شـاهـد الحق في تنـزيل فرقـان

كان الـدليل له منـه بـه ولـــه   حقـا وجـدناه بل علمـا بتبيـــان (6)

ويأبى أهل العقـل ونظرية التأمل على الصوفية نظريتهم هذه بل ولو أقروها وسلمـوا بنجاعتهـا، إلا أنهم يجعلونهـا لأخص الخواص من أهل الله ولا يمكن تعليمهـا لكل أحدٍ، ثم أن هؤلاء الخواص ما وصلوا إلى طريقتهم هذه، حتى مروا بكل المـراحل الأخرى. النظر في المـوجودات واستنباط النصوص ولم يولدوا بطريقتهم هذه. ويناقش هؤلاء الصوفيـة فيلسوفٌ سني هو ابن رشد، قائلا : ولو كانت الطريقـة التي عليهـا أهل التصـوف هي

---

1) البقـــرة 281 .
2) العنكبـــوت . 69 .
3) الانفـــال . 29 .
4) احمد بن محمد ابـو الحسين النورى البغوى توفى سنـة 295 . ترجمتـه فى الحلية ج 10 ص 249 . تاريخ بغداد ج 5 ص 130 طبقات الصوفية للسلمى ط مصر 1953 ص 164 .
5) انظر بالفرنسية
ومناقب أبى الحسن الشاذلى 7 - 1915 P 34
6 التعـــرف ص 63 ـ 5 .

المقصودة في الشرع بالناس لبطلت طريقة النظر ولكان وجودها بالناس عبثا والقرآن كله إنما هو دعاء إلى النظر والإعتبار وتنبيه على طرق النظر كقوله تعالى : أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء. ألم يجعل الأرض مهادا والجبال أوتادا. فلينظر الإنسان إلى طعامه. فلينظر الإنسان مما خلق، خلق من ماء دافق. تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا، والايات البينات في هذا المعنى أكثر من آيات الإشراق. لذا نلخص أن طريقة التأمل هي الشرعية والغالبة على الأسلوب القرآني في الوصول إلى معرفة واجب الوجود (1)

ومن علمائنا المسلمين من مروا بكل هذه المراحل واقتنعوا وسلموا تسليما عن إيمان بوجوده تعالى إلا أنهم أرادوا أن يعرفوا أكثر مما وصلوا إليه، فوقفوا حيارى ذاهلين لا يدرون أوصلوا إلى مصاف العارفين أم بقوا مع عامة الناس وأنهم لم يعرفوا إلا أقل ما يمكن أن يعرف وهو جوهر الإيمان به تعالى فصاح بعضهم :

تحيرت البدو ماذا تكون ... وضلت بوادي الظنون الحضر

وقال آخر يجيبه :

لقد طفت في تلك المعاهد كلها ... وسيرت طرفي بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعا كف حائر ... على ذقن أو قارعا سن نادم

ولخص الفخر الرازي آراء الباحثين الحيارى بقوله :

نهاية إقدام العقول عقال ... وأكثر سعي العالمين ضلالُ
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

وقال الجنيد : الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى اثر الرسول صلى الله عليه وسلم، وابن عربي القائل : نظرنا بقوة العقل وما أعطاه العقل الكامل بعد جده واجتهاده الممكن، فلم نصل إلى المعرفة به سبحانه

1) ابن رشد ، الكشف عن منهاج الادلة ص 45 وما بعدها .

إلا بالعجز عن معرفته، لانا طلبنا أن نعرفه كما نطلب معرفة الأشياء. فما عرفنا إلا أن ثم موجودا ليس له مثل ولا يتصور في الذهن ولا يدرك، فكيف يضبطه العقل، و لذا لا يمكن الإعتماد على العقل في الإلاهيات. وقال : خضنا بحرا وقف الأنبياء على شاطئه. وهو قول الفيلسوف والصوفي الاخر : إن لله كنها لا يعرفه إلا هو.

1) انظر ايضا عدا ما ذكر :
لطائف المنن في مناقب أبى الحسن لابن عطاء الله ط ، تونس ، 1304_1887 .
الفتوحات المكية ، ط ، بولاق 1274 لابن عربى ، وفصوص الحكم ، نشرة أبى العلاء عفيفى ، القاهرة 1946 .

Gardet et Anawati, Introduction à la théologie Musulmane, éd., Vrin, Paris 1948.

La Pensée religieuse d'Avicenne, Vrin 1951,

H. Laoust, Essai sur les doctrines sociales et politiques de T., Ibn Taymiyya, Le Caire 1949. J.F.A.O.

Acin Palacios, in Revue Al Andalous, 1915, p. 34,7.